الفصل الخامس عشر
الواحتان المجهولتان أركنو والعوينات

الأربعاء ١٨ إبريل:

وجد أبو حليقة في آخر الأمر رجلين يصحبان جماله وهما بوكاره وحامد وكانا فقيرين أغواهما بالمال فأنساهما الخطر، وأرسل السيد العابد ثلاثة مثّلوه في توديعنا وقد أحضروا لي خطاب توديع منه نال من نفسي كثيرا.

وجاء أبو حليقة يودعنا كذلك وكانت عيناه نديتين وما أظن أن ذلك كان إشفاقًا منه على جماله أو رجليه فإن رغم ما نجم بيننا من خلاف في الرأي ظللنا صديقين مخلصين يحب كل منا الآخر ويحترمه.

وجاء أصدقاء رجالي لتوديعهم فأفرطوا في ذلك حتى كأن ذلك الموقف كان لوداع أخير، وكان ذلك التوديع أحرَّ ما رأيت في رحلتنا وأفعله في النفس وكانت كلمات الوداع الأخيرة «رافقتكم السلامة، المقدر لا بد من وقوعه، هداكم الله سواء السبيل ووقاكم كل مكروه».

ولم يكن ذلك التوديع مما يشعر قلوب المقيمين والظاعنين بأمل اللقاء أو اليقين من العودة، وكان في جُمل التوديع الأخيرة المتبادلة بين الفريقين تهدّج لم يخفف عني مبعثه في نفوسهم لعلمي بما حدث في الأيام السابقة للسفر ويقيني من الخوف الذي تملكهم أجمعين.

وكانت أفكاري وأفكارهم في ذلك الموقف متباينة فإني كنت أهش التفكير إلى الواحات المجهولة والسير في الطريق البكر والاندفاع صوب المجهول، أما هم فكانوا يظنون أن هذا آخر مرة يشدون فيها على أيدي أصدقائهم وقد ارتسمت ملامح الإشفاق على وجوه بعض من جاءوا يودعوننا كأنما كتب على وجوهنا الموت وارتسم على جباهنا الفناء ولكنهم كأهل البادية كانوا يشعرون بأن ذلك الرحيل كان مكتوبا في لوح القدر، وقرأنا الفاتحة ثم أردفها أحد الرجال بالأذان.

وصحبنا المودعون حتى شفا الوادي الذي تنتهي عنده الواحة وتمتد الصحراء، ثم تركونا غير ناظرين في أثرنا فانحدرنا إلى الصحراء المنبسطة وتلفتت أعيننا إلى أجمات النخيل وكانت الشمس تجنح للغروب والغسق ينشر غلالته على الكفرة التي أخذت تختفي شيئًا فشيئًا في ذلك النور الآخذ في الانطفاء وكأنَّا ننظر إلى المدينة من ثقب آلة تصوير.

وكنت أتوق إلى الابتعاد عن الكفرة حتى ينمحي شبحها في أعين الرجال فينسوا وداعهم الماضي ويفكروا في المستقبل ويفرغوا إلى تأدية واجبات السفر. واختفت الكفرة فانبسط أمامي المجهول المملوء أسرارا وسحرا يتصورهما الفكر في كل بقعة من أرض لم تطأها قدم غريب عنها.

وكان قيامنا في منتصف الساعة الخامسة ووقفنا الساعة الثامنة وربعا وقطعنا ١٥ كيلو مترا، وكان الجو صحوا جميلا لا ريح فيه والأرض رملية صلبة قليلة التموج مغطاة بحصى دقيق.

وتركنا نخيل العزيلة والكفرة فاجتزنا منطقة من الحطب تشابه منطقة الظيغن ودخلنا السريرة الساعة السادسة إلا ربعا وفي منتصف السابعة مررنا بتلال تمتد على الجانب الجنوبي لوادي الكفرة وفي الثامنة إلا ربعا وصلنا (حطية الحويش) الكثيرة الحطب، وخلفا رجلين في حراسة حملين تركناهما على أن يحملهما جملان لعبيد التبو.

وكانت قافلتنا مؤلفة من ٢٧ جملًا و١٩ شخصًا أنا والسيد الزروالي وعبد الله وأحمد وحمد وإسماعيل والسنوسي أبي حسن والسنوسي أبي جابر وحمد الزويّ وسعد الأوجلي وفرج العبد وبوكاره وأخيه الأصغر وحامد الجمّال وحسن ومحمد الدليل وثلاثة من عبيد التبو.

الخميس ١٩ إبريل:

قمنا في الساعة الثانية إلا ربعا بعد الظهر ووقفنا السابعة وربع مساء وقطعنا ٢٤ كيلو مترا، أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١١، الجو صحو جميل قليل السحاب والنسيم هابّ من الجنوب الشرقي قارّ عند الظهيرة.

ودخلنا السريرة مرة أخرى بعد اجتياز حطب الحويش وكانت منبسطة صلبة الرمال مغطاة بحصى دقيق وكان شرق الحطية سلسلة من التلال الرملية المغطاة بحجارة قائمة يقابلها مثلها جهة الغرب على بعد أربعة كيلو مترات.

وفي الساعة الثانية وربع وصلنا نهاية (حيطة الحويش) وعرضها كيلو متران وفي الساعة الرابعة إلا ربع رأينا جارة على بعد كيلو مترين من اليسار وفي الساعة الخامسة رأينا جارة أخرى على بعد أربعة كيلو مترات من اليمين وفي

الساعة السادسة أصبح الرمل أكثر نعومة وعليه أكوام متناثرة من الحجارة السوداء وصفحة الصحراء متجعدة، وقد تأخر رحيلنا لانتظار الجملين اللذين خلفناهما، فقضينا وقتا في جمع الحطب وكان الجو شديد الحر بعث التعب بسرعة في أوصال الجمال، وهذه الأرض مشابهة للمسافة الواقعة بين بو الطفل والظغين، وقد أمكنني بفضل هجيني أن أتأخر عن القافلة فأقوم بعمل بعض الملاحظات دون أن أهيج سوء ظن رفقائي فيما أفعل واضطررنا لحط الرحال في ساعة مبكرة نظرًا لحال الجمال.

الجمعة ٢٠ إبريل:

قمنا الساعة الثانية صباحا ووقفنا في منتصف الساعة العاشرة صباحا ثم سرنا في منتصف الرابعة وانتهينا من السير الساعة الثامنة فكان ما قطعناه ٤٨ كيلو مترا، أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٠ وذلك بعد منتصف الليل بنصف ساعة، وكان الجو صحوا جميلا وهبت ريح باردة من الجنوب الشرقي في الصباح، وسكنت عند الظهر وسارت في الساعة الرابعة وفي المساء تغير اتجاهها إلى الشمال الشرقي.

وفي الساعة الرابعة اخترقنا جهة متجعدة منثورة بالحجارة وفي الساعة السادسة دخلنا السريرة مرة أخرى فانبسطت الأرض وطلعت الشمس الساعة السادسة فرأينا ذات اليمين وذات اليسار تلالا رملية تبعد عنا من ١٠ إلى ١٢ كيلو مترا ورأيت خُطافا في الصباح وصقرا في العصر، وفي الساعة الرابعة وثلث قطعنا أكواما منخفضة من الرمل ورأينا جارة سوداء ممتدة قليلة الارتفاع على بعد ١٠ درجات من جنوب الجنوب الشرقي، وكانت هذه المرحلة أردأ مراحل

السفر لاشتداد الحر والبرد فقد زاد الحر في الظهر حتى عاقنا عن السير واشتد البرد في الليل فصعب علينا المسير ولذلك قسمنا المرحلة قسمين فكنا نبدأ السير بعد منتصف الليل ونستريح في حمارة القيظ وضايقنا ذلك لعدم تمكننا من إتقان حزم الحوائج في الظلام، وتحسنت حال الجمال اليوم، وكان رابع أيام الشهر العربي والبدو يقيسون الجو على ذلك اليوم معتقدين أن جو بقية أيام الشهر يطابق جوه وقد صدق هذا القياس هذه المرة.

السبت ٢١ إبريل:

قمنا في منتصف الساعة الثالثة صباحًا وفي الساعة السادسة دخلنا جهة صخرية امتدت بنا إلى مسافة ١٢ كيلو مترا، واجتزنا إلى اليسار جارة (كودي) ودخلنا السريرة في الساعة التاسعة تكتنفنا عن بعد تلال الرمل ذات اليمين وذات اليسار.

ومرض أحد الجمال عقب بدئنا في المسير ورفض أن يستمر في سيره رغم رفع أثقاله وتركنا بدويين يحجمانه ولكن مساعينا في مداواته ذهبت أدراج الرياح فاضطرنا إلى ذبحه، وحظرت على البدو أن يأكلوا لحمه ولكن اثنين من التبو انتهزوا فرصة وقوفنا ظهرا ورفعا الأحمال عن جمليهما ثم رجعا لتجفيف لحم الجمل وتركه حتى يعودا من العوينات فكان ذبح الجمل وانتظارنا العبدين سببا في تأخيرنا ساعة.

ولم ينم رجالي الليلة السالفة إلا قليلا وظهر عليهم التعب بعد شروق الشمس ولكن الذي أنهك قوى الرجال والجمال لم يكن في الحقيقة إلا اشتداد

الحرارة بين الظهر والساعة الرابعة، وبدأنا السير في منتصف الساعة الخامسة وكل أفراد القافلة متعبون بطيئو الخطو، ورأيت صقرين ومراقد حديثة للطير فوق الرمال.

الأحد ٢٢ إبريل:

كان سيرنا في أرض منبسطة صلبة الرمال نعثر فيها من وقت لآخر ببعض التلال الرملية المغطاة بالصخور السوداء التي يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وعشرة، وفي منتصف الساعة السادسة رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تقطع سبيلنا في امتدادها من الشمال إلى الجنوب الغربي وفي الساعة الثامنة دخلنا أرضًا جميلة ظللنا نسير فيها عامة اليوم وعثرنا فيها على بيض نعام مهشم واسم هذه الناحية (وادي المراحيج).

وقد أتقنا تحميل جمالنا، ذلك اليوم ولكن الرجال ما زالوا مجهودين وقد تخلف الكثيرون عن القافلة ليغنموا نصف ساعة يغفون فيها ثم يلحقون بها عند استيقاظهم، وأحضر لي بوكاره نسرين صغيرين لقطهما من عشهما في قمة جارة فأمرته أن يرجعهما وأشرفت على ذلك بنفسي.

ومرضت هجيني فاضطرتني إلى رفع حملها وسرجها طول بعد ظهر اليوم وحططنا الرحال عند الظهر فنام رجالي ملء حفونهم وغط غطيطهم ولم يرقني هذا النوع من السفر الممل ولكنا كنا مثابرين على كل حال.

الاثنين ٢٣ إبريل:

قمنا في منتصف الساعة الثالثة صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربع صباحا وقمنا ثانيا الساعة الرابعة إلا ربعا ووقفنا الساعة التاسعة مساء فقطعنا ٤٦ كيلو مترا، وكانت هذه المرحلة أشد المراحل إنهاكا لقوانا فإنا لم ننم في اليوم أكثر من أربع ساعات مدة ثمانية أيام ولم نكد نبدأ السير حتى تخلف الرجال دفعة واحدة لاغتنام نصف ساعة إغفاء تاركين جمالهم تتبع النور الضئيل الذي ينبعث من مصباح الدليل، ولم أتمكن من الاستمتاع بهذه الغفوة خشية مني على أجهزتي أن يصيبها شيء، وكنا قد حملنا الجمال في الظلام فلم أكن واثقا من دقة التحميل وخفت أن تنحل بعض الأربطة فيتكسر من حوائجي جهاز علمي أو آلة تصوير.

وحدث في فترات متتابعة أن تقف الجمال واحدا بعد الآخر فتبرك وترفض النهوض فيأتي أحد عبيد التبو ويضغط بإبهامه على عرض خاص في جبهة الجمل فيعيد إليه قواه ويبعثه على السير، وكنا نجهد في قطع تلال الرمل العالية الشديدة الانحدار فرأينا أمامنا بغتة جبالا قائمة كقصور القرون الوسطى وقد أحاط بها ضباب الصباح حتى كاد يخفيها عن الأبصار، وسطعت الشمس بعد قليل على هذه الجبال فصبغت لونها الرمادي بلون الورد، وتخلفت عن القافلة فجلست مدة نصف ساعة على تل رملي ثم تركت عقلي وقلبي يشربان حسن هذه الجبال البديعة.

لقد وجدت ما كنت أنشده فقد كان ما رأيت جبال (أركنو) وكانت تلك

الساعة مشهودة في تاريخ رحلتي، فيها نسيت ما لقيت من المصاعب وما أتوقعه من المخاطر، في تلك الساعة بل في تلك اللحظة نسيت ساعات طويلة من الألم بل أياما عديدة أضناني فيها الجهد والتعب، في لحظة واحدة نسيت الأهوال التي تجشمتها والعقبات التي ذللتها لأصل إلى تلك الواحة المجهولة المفقودة، إلى تلك البقعة الصغيرة المنيعة الضائعة في هذه الصحراء الفسيحة القاسية الجافة القاحلة.

رأيت جبال (أركنو) عن بعد فرأيت طلائع النجاح والتوفيق فقد كانت واحتها إحدى الغايات التي رميت إلى اكتشافها.

وظللنا نتصعد ونتصوب بين تلال الرمل في ساعات الليل الباردة السابقة لطلوع الفجر، حتى إذا بان خيطه وأصبحنا عند آخر تل من تلال الرمل اختفت جبال أركنو بغتة كأن ستارا أسدل عليها دفعة واحدة فزال باختفائها عن عيني ذلك المنظر الرائع الذي لم تر عيني مثله في صحراء ليبيا منذ تركت السلوم، فقد كانت جبال أركنو فريدة في جمال مناظرها خلبت لبي حتى خيل لي إنني لا أسير في الصحراء.

الثلاثاء ٢٤ إبريل:

كان اليوم الحادي عشر بعد المائة من تركنا السلوم والأربعين بعد المائة من تركنا القاهرة وكان سيرنا في أرض حرّة متموجة وفي الساعة الخامسة صباحا اجتزنا تلالا رملية ثم سرنا في أرض حجرية صلبة مغطاة بالحصى، وكان على بعد مائة متر من شمال أركنو تل عظيم من الخراسان يبلغ طوله كيلو مترين

وارتفاعه زهاء المائة متر، وبزغت الشمس فكان شروقًا بديعا امتزجت فيه الظلال الذهبية بقطع من السحاب رمادية اللون وهدأت ريح الصباح الباردة فدفئ الجو.

وجبل أركنو كتل من الجرانيت خالط سطحه الرمادي اسمرار يضرب إلى الحمرة، وهذا الجبل قائم في مدى طوله على ارتفاع واحد يبلغ ٥٠٠ متر من سطح الصحراء وهو مكون من سلسلة كتل مخروطية الشكل متلاصقة القواعد. وقربنا منه من أقصى جهاته الغربية، وكنا في تقدمنا إليه لا نستطيع معرفة مدى امتداده، وكانت أبعد نقطة نراها منه في ذلك الاتجاه قنة مرتفعة وسرنا حوله من جهة الركن الشمالي الغربي فأصبنا مدخل الوادي الممتد إلى جهة الشرق، وكان في هذه الناحية من الصحراء شجرة منفردة من النوع الذي يسميه الجرعان (أركنو) ويسميه البدو (صرخة) ومن هذه الشجرة اتخذت الواحة اسمها.

ونصبنا خيامنا على مقربة من الشجرة ولم يكن ذلك بالموقع الحسن نظرا لكثرة (قرد) الجمال التي تعيش في ظل الشجرة والتي وفدت علينا أسرابا عند اقتراب الجمال، واضطررنا إلى ضرب خيامنا على مسافة من الشجرة تفاديا من (القرد) وأن آثرت البقاء في ظل الشجرة عن الفتك بالجمال، وقد لقطت ذات مرة قردة من هذا القرد فكانت كقطعة من الخشب المتحجر وضربتها بعصا فتكّت كأنها قطعة من الحجر، أوشحت بوجهي عنها مدعيا الانشغال بشيء آخر فمضى عليها زهاء الأربع دقائق حتى بانت الحياة في حركتها؛ لأن القردة تعلم بغريزتها أن سلامتها في ادعائها التحجر ثم انتهزت فرصة غفلتي عنها

فمرقت في سرعة البرق، وتغنى القردة عن الجمال إذا عز الوصول إليها؛ لأنها تمتص دم الجمل حتى تنتفخ ثم تعيش على ذلك سنينا كما يقول البدو ولكني لا أظن ذلك يتجاوز بضعة أشهر.

وما كدنا نستقر حتى أرسلت الجمال إلى الوادي لتشرب وتحمل إلينا الماء وكنا في حاجة شديدة إليه ولحقنا بعد ساعتين من ضرب الخيام ذانك العبدان اللذان تخلفا، وأحضرا جانبا من لحم الجمل المذبوح فكان منه عشاء شهي لرجال القافلة، وهبت ريح شديدة ساخنة استمرت طول النصف الثاني للنهار.

وحدث لي أني بينما كنت أستريح في خيمتي شرعت بغتة بشيء يلمس أذني فحاولت أن أذوده دون أن أتعرفه وبعد ذلك بدقائق هبت عاصفة ريح من خلال جوانب الخيمة وكنت قد رفعت جانبا منها بقصد التهوية فأحسست شيئا يمرق محتكا بجسمي فقبضت عليه ولكنه أفلت من يدي لحسن حظي وراحة بالي فقد كان ثعبانا طوله زهاء الأربعة أقدام، وقد أمسكه رجالي بعد ذلك وقتلوه.

وأقام الرجال بعد ظهر اليوم مسابقة في إصابة الأهداف بدأت تسلية وصارت كبيرة الأهمية حين وضعت ريالا مجيديا للفائز، ونال الجائزة السنوسي أبو جابر على قصر نظره، وعبر حامد عن شعور المتسابقين حين قال عن نفسه «لقد كان للمجيدي تأثير شديد في نفسي وهاج أعصابي فلم أصب الهدف الذي لم أخطئه من قبل» وقمت بعمل بعض أبحاث وأخذت صورًا فتوغرافية وداويت أسنان الدليل.

وبغتتنا منظر الجرعان وهم قبائل السود الذين يعيشون في تلك النواحي فقد ظهروا فجأة من الوادي وتقدموا إلينا فحجزناهم للعشاء.

ولم يكن أحد منا يحلم بوجودهم قبل أن يظهروا فإن الجبل يبدو موحشا خاليا حتى لا يظن أحد أنه يحوي واديا خصبا مأهولا والحقيقة أن أركنو لا تظل مسكونة طول السنة لأن واديها يحوي خضرا يانعة ترعاه الإبل بلا راعي، وتفسير ذلك أن البدو وعبيد التبو والجرعان يحضرون جمالهم إلى ذلك الوادي في فصل الكلأ فيسدون منافذ الوادي بالصخور ويتركونها ترعى مدة ثلاثة أشهر بغير رعاة. وقد قال لي محمد الدليل: «إن أصحاب الجمال إذا عادوا إليها بعد تركها في ذلك الوادي كان شحمها في سمك قبضتي اليدين».

الأربعاء ٢٥ إبريل:

أحضرت لنا قبيلة الجرعان التي تعيش في الوادي نعجة ولبنا وسمنا بمثابة ضيافة وجاءوا بقطيع أغنامهم إلى مضرب خيامنا حتى يحلبها الرجال، وركبت بعد الغداء مع السيد الزورالي وبوكاره إلى وادي أركنو وهو (كركور) أعني وادٍ ضيق متعرج يمتد في الجبال مسافة ١٥ كيلو مترا ويحوي الحشيش والعوسج وبعض الأشجار وزرنا كوخ الجرعان حيث صورت بنتا وولدين من أفراد الأسرة وكان الولدان في ثياب بيضاء وهي شارة أبناء الشيوخ، وعدت إلى خيامنا فأرسلت قماشا ومناديل وأرزا هدية مني للأطفال الثلاثة.

وعزمت على الإقامة ثلاثة أيام أخرى في أركنو؛ لأن المرعى كان خصيبا والجمال لم تزل متعبة من ذلك السفر الشاق إلا هجيني فإنها كانت على ما يرام.

والتقطت بعض الحجارة كعينات جيولوجية فهجت بذلك ريبة بعض رجالي؛ لأنهم ظنوا أن هنالك ذهبا فيما التقطت من الحجارة وإلا لما كلفت نفسي مشقة حملها إلى وطني.

الخميس ٢٦ إبريل:

في أركنو، أعلى درجة للحرارة ٣٦ وأقلها ٩، الجو صحو معتدل والريح ساخنة قوية تهب من الجنوب الشرقي وقد هدمت الخيام مرتين، وأرسلنا الجمال ترعى وتشرب وكان يومًا شديد الحر بلغت درجته داخل الخيمة ١٠٠ درجة فهرنهيت، وكان قيامي بالأبحاث والأرصاد صعبًا نظرًا لاشتداد الريح، ولم أملْ إلى القيام بها مستترا خلف الخيام خوفا من إثارة الفضول والريبة وسكنت الريح في المساء فأعاضتنا الطبيعة عن اليوم الحار المحرق ليلة رطبة النسيم باهرة القمر، ورقص بوكاره وبقية الرجال وغنوا حتى منتصف الليل.

الجمعة ٢٧ إبريل:

إن أركنو أولى الواحتين المجهولتين اللتين كان من حسن حظي أن أحدد موقعهما على الخريطة، وكان هنالك قبل ذلك إشاعات متواترة بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبي الغربي ولكن المكان الذي وضع لهما بالحدس والتخمين كان بعيدًا عن موضعهما الحقيقي بمسافة تتراوح بين ٣٠ و١٨٠ كيلو مترا، ولم يكن حدد موضعهما أحد بعد أن رآهما رأي العين.

وقد أظهرت ملاحظاتي أن أركنو تقع على درجة: ٣٢ ثانية ١٢ دقيقة ٢٠ درجة، من خط العرض الشمالي وعلى درجة: ١٥ ثانية ٤٤ دقيقة ٢٤ درجة، من خط الطول الشرقي،

وإن ارتفاعها عن سطح البحر ٥٩٨ مترا عند سفح الجبل، فهي والحالة هذه داخلة في الحدود المصرية والأهمية العظمية لهذه الواحة -ولواحة العوينات كذلك- فيما تمهده في سبيل استكشاف الركن الجنوبي الغربي لمصر الذي لم تكن وصلته بعد أية دورية حربية أو قافلة مسافرة، ولم يكن أحد يعلم بالتحقيق بوجود موارد للماء يعتمد عليها في قطع ذلك الجزء من الصحراء.

ويظهر أن مياه أركنو دائمة وصالحة للشرب وإن لم تكن من الجودة بحيث يتمنى واردها، ولأركنو ميزة حربية يمكن الاستفادة منها في مقبل السنين نظرًا لوقوعها في ملتقى خطي الحدود الغربية والجنوبية لمصر، وأركنو والعوينات تختلفان عن بقية واحات الصحراء المصرية الغربية في أنهما ليستا منخفضتين في الصحراء يتسرب إليهم الماء من باطن الأرض لأنهما بقعتان جبليتان تجتمع مياه الأمطار في حيضانهما الصخرية.

وسلسلة جبال أركنو حسب ما رأيتها تمتد ١٥ كيلو مترا من الشمال إلى الجنوب و٢٠ كيلو مترا من الشرق إلى الغرب، ولكن الفرص لم تتحل لي فاستكشفها من الجهة الشرقية ولذلك لا يمكنني أن أجزم بعدم امتدادها في تلك الجهة إلى أبعد مما ذكرت لأني عاينتها بقدر ما وصل إليه بصري من موقفي في الصحراء عند سفح الجبل الغربي، وربما كانت جبال أركنو من جهة الشرق مستمرة الامتداد على شكل سلسلة من التلال تبدأ جبال العوينات عند نهايتها من الجنوب، وقد تمكن الفرص غيري من استكشاف الأجزاء الشرقية لهاتين الجهتين الصخريتين أكثر مما أمكنتني حين زرتها مزودًا بما كان معي من الوسائل.

وأقرب الأصقاع المعروفة إلى أركنو والعوينات من الجهة الشرقية -أو الجهة الشمالية الشرقية على الأصح- هي الواحات الداخلة على بعد ٥٠٠ كيلو متر أو ما يقرب من ذلك، ويزعم الناس أنه كان هنالك طريق قديم بين مصر وتينك الواحتين ولكن السفر من الواحات الداخلة إلى أركنو والعوينات مشروع كبير يستغرق ١٤ يوما تقريبا.